مصطفى صبري ودوره في معالجة قضايا المرأة

Mustafa Sabry and his role in addressing women's issues

مريم بوخاري[1]، عبد الغني عكاك [2]
جامعة بن يوسف بن خدة – الجزائر 1-(الجزائر)
m.boukhari@univ-alger.dz
abdelghani_akak@yahoo.com

الملخص:

تناول هذا البحث ولادة شخصية معرفية جد هامة في الفكر الإسلامي المعاصر، حيث يعتبر مصطفى صبري من رواد التجديد والإصلاح الفكري، وبرز ذلك من خلال كتاباته التي تميزت بتنوع في الطرح، ومثلت صرحاً من الإبداع الفكري المتميز، فتطرق إلى قضايا متنوعة من بينها قضية المرأة، حيث ألف في ذلك كتاب "قولي في المرأة"، وتحدث عن القضية مناقشًا مسائل السفور، والحجاب، وتعدد الزوجات، والشبهات المثارة فيها، وبذلك كان هدف هذا البحث بيان مدى اسهامات مصطفى صبري في الدفاع عن تعاليم الدين الإسلامي في مجال حفظ مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي، معتمدين في ذلك على المنهج التحليلي، أما النتائج فاشتملت في مجملها إلى صرف الباحثين للاهتمام بقضية المرأة، ومجمل القضايا التي تتخبط فيها الانسانية في عصرنا الحالي، وكذا الالتفات لدراسة أعلام الفكر الإسلامي والتجارب الإصلاحية.

الكلمات المفتاحية: مصطفى صبري، قضية المرأة، الحجاب، تعدد الزوجات، المساواة.

Abstract:

The research dealt with the birth of an important epistemological figure in contemporary Islamic thought, as Mustafa Sabry is considered one of the pioneers of renewal and reform, and this was highlighted through his writings that were characterized by the diversity of proposition and the removal of ambiguity on a group of important issues. Among them are women's issues, as he wrote in the book “My Say About Women”, and discussed the issues of the veil and unveiling, polygamy, and the suspicions raised therein. Analytical, as for the results, they included in their entirety the dismissal of researchers to pay attention to issues related to women, as well as attention to studying the flags of Islamic thought and reform experiences.

Key words: Mustafa Sabry, the issue of women, the veil, polygamy, equality.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

طرحت في ساحة الفكر الإسلامي قضية الحقوق الاجتماعية والخصائص الإنسانية للمرأة، على شكل واقعة مؤثرة، أحدثت هزّة روحية وأزمة ثورية، أثرت في المجتمعات المحافظة والمجتمعات التاريخية والدينية على حد سواء، تحت شعار تحرير المرأة، في خضم التجربة النضالية التي مكنت مصطفى صبري من كشف الآفات التي تطغى على مجتمعه والأسباب التي تساهم في تأخره والعوامل التي تقلل من فاعليته، تأتي صرخة من الغرب اقترنت فيها النهضة العلمية والفلسفية بالنهضة الاجتماعية، ونشط باسم حقوق الإنسان كُتاب ومفكرو القرنين السابع عشر والثامن عشر بنشر أفكارهم بين الناس حول الحقوق الطبيعية والفطرية، وفي القرن العشرين طرحت مسألة حقوق المرأة في مقابل حقوق الرجل، تبنت هذه الأفكار جهات مسلمة ممن قلدوا النظم الغربية وانبهروا بأفكار الغرب، حيث أضيفت جملة من القضايا إلى جانب المساواة بين الرجل والمرأة، فقد انتشرت مسألة حرية المرأة، ومسألة الحجاب، والمهر، والنفقه، والطلاق، وتعدد الزوجات، الميراث وغيرها، فحمل مصطفى صبري لواء الدفاع والرد عن هذه القضايا، وسخر قلمه وفكره لمجابهة الأفكار والدفاع عن تعاليم الدين الإسلامي، وكشف خطط القوى والمنظمات المعادية للإسلام وحيلها والتنبيه منها، بأسلوب علمي رصين يدفع الشبه، ويقيم الحجج، ويقدم الحلول الناجعة، فأدخل بذلك زمرة المجددين المعاصرين الذين يذودون عن دينهم بالنفس والنفيس.

وانطلاقا من هذا برزت أهمية الموضوع في تبيين جهد مصطفى صبري في معالجة قضية المرأة، وتبيين مكانتها في المجتمع الإسلامي، وبيان مدى اسهاماته في الدفاع عن تعاليم الدين الإسلامي.

ومن هذا يمكن طرح مجموعة من الإشكالات كالآتي:

-من هو مصطفى صبري؟ وما هو دوره في معالجة قضية المرأة؟

-ما هي الخصائص العامة لفكره؟

-ماذا قدم للأمة الإسلامية وهل هي في حاجة إلى فكره؟

وعلى هذا الأساس وللإجابة على هذه التساؤلات، قسمنا البحث إلى:

المقدمة: تطرقنا فيها إلى التعريف بالموضوع وبيان أهميته، وكذا الإشكالية، وخطة التقسيم ومعالجة الموضوع.

1- حياة مصطفى صبري، تعلمه وإنتاجه الفكري

1.1- مولد مصطفى صبري ونشأته

2.1-نشاط مصطفى صبري العلمي

3.1-آثار مصطفى صبري الفكرية

2-خصائص فكر مصطفى صبري ومنهجه في الرد على قضايا الفكر الإسلامي

1.2- خصائص فكر مصطفى صبري
2.2-منهجه في الرد على القضايا الفكر الإسلام
3-هدف مصطفى صبري
1.3- تصحيح العقائد الدينية
2.3- إثبات الاعتقادات الدينية
3.3- دحض الآراء المعارضة
4-دور مصطفى صبري في معالجة قضية المرأة
1.4- موقف مصطفى صبري من قضية السفور والحجاب
2.4- موقف مصطفى صبري من مبدأ تعدد الزوجات
3.4- موقف مصطفى صبري من المساواة بين الرجل والمرأة

الخاتمة: اشتملت على مجمل نتائج البحث وتوصيات.

1- حياة مصطفى صبري، تعلمه وإنتاجه الفكري:

1.1- مولد مصطفى صبري ونشأته:

ولد الشيخ مصطفى صبري في الأناضول بمنطقة سيواس بمدينة توقاد، التي ينسب إليها، بتاريخ "12 ربيع الأوّل 1286ه- 21 يونيو 1869م"[1]، كما جاء ذكر لنسبه في كتابه موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين أنه "مصطفى صبري التوقادي ابن احمد بن محمد القازابادي"[2]، فمصطفى صبري ينحدر من نسب تركي أبا عن جد، كما قال هو عن نفسه:" ولدت في أسرة الأناضول ببلدية توقاد، وأبي وأمي وكذا أبويهما، وأبو أبويهما، وهكذا دواليك كلهم أناضوليون ذو نسب عريقٍ في الترك".

توفي-رحمه الله-يوم الجمعة 7 رجب 1383ه-1945م، عن عمر يناهز السادسة والثمانين[3].

2.1- نشاطه العلمي:

نشأ مصطفى صبري في أسرة تربعت على العلمٍ والفضلٍ، فتربي على تعاليم القرآن الكريم، فحفظ القرآن وجوده ولم يتم العاشرة من عمره، وأتم دراسته الابتدائية في مسقط رأسه، حتى أنه درس على يد والده أحمد، وعلى يد كبار مشايخ بلدته، ثم استأذن والده في السفر لمدينة القيصرية بالأناضول ليأخذ من علمائها وينهل من علمهم، فأذن له والده وسافر وهو في ريعان شبابه، وبعدما منحت له إجازته الأولى بالقيصرية، انتقل إلى الأستانة حيث أتم بها دراسته لعلوم الشريعة، فأخذ العلم على يد كبار مشايخها ونال بذلك إجازتين، ثم أدخل في امتحان التدريس"[4]، و"عين مدرساً في جامع محمد الفاتح باستانبول، وهو في الثانية والعشرين من عمره، ثم تولى مشيخة الإسلام في الدولة العثمانية"[5].

إن تخصص الشيخ كان في مجال العلوم الشرعية، ولذا فقد امتاز بتبحره في قراءة أمهات الكتب الإسلامية، بالإضافة إلى قراءته لكتب المعاصرين له، كما نشأ ميالاً منذ

صغره للعلوم العقلية، فهي تلتئم مع فطرته ومزاجه[6]–على حد قوله-، وليس ميلا فقط بل "كان واسع الاطلاع بالفلسفة –اليونانية والإسلامية، والحديثة، والمعاصرة- وأيضاً المنطق، كما كان ملماً بعلم الكلام، فكان بارعاً في العلوم العقلية، ولهذا عرف في الأوساط العلمية بغزارة علمه وسعة اطلاعه وقدرته الفائقة على المناظرة"[7]. كما أتيحت له حرية التكلم والخطابة والتأليف والكتابة، فألم بمختلف جوانب المعارف والعلوم، فحق عليه منصب شيخ الإسلام للدولة العثمانية، وهو آخر من استلم هذا المنصب، في عهد كمال أتاتورك[8].

3.1- آثار مصطفى صبري العلمية:

إن المتعمق في دراسة مختلف العلوم والمعارف ليكتسب ملكات تؤهله لتمثيل نمط خاص من أنماط التفكير والتفاعل مع المحيط والظروف، ونجد الشيخ مصطفى صبري قد ساعده تبحره في دراسة مختلف العلوم والمعارف، وتقلده للمناصب العلمية والسياسية، ورغم الظروف الصعبة والأزمنة الحرجة فقد استطاع أن يخلف وراءه تراثاً فكرياً جيداً، فقد كتب في العقيدة، والفقه، وأصول الفقه، والفلسفة، وعلم الكلام، واللغة العربية وعلومها وآدابها، والتاريخ، والسياسة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وطرق أيضا مجال الصحافة، ونظم قصائد وأشعار بالعربية والتركية.

ترك مصطفى صبري كتب ومؤلفات في مختلف المجالات، وإنه من الواجب علينا ذكر جميع آثاره القيمة، ولكن الورقة البحثية تحتم علينا عدم الإطالة، لذا سنسعى لذكر بعضًا من إنتاجه الفكري، نذكر عناوينها كالآتي:

- مسألة ترجمة القرآن.
- قولي في المرأة.
- موقف البشر تحت سلطان القدر.
- كتاب القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون.
- النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة.
- موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين.

غير أن هذا الأخير هو آخر كتبه تأليفاً، وأشهرها ذيوعاً، وقد صدر بأجزائه الأربعة تباعاً، وبلغ ما يقرب من ألفي صفحة، فختم به مسيرة حياته، وجمع فيه ما تفرق في غيره وزيادة، وقد تشكلت مادة الكتاب من سجال مفتوح بين الشيخ مصطفى صبري من جهة وبين خصومه الفكريين من جهة أخرى، سواءٌ كانوا أفراداً أو تيارات فكرية.

2- خصائص فكر مصطفى صبري ومنهجه في الرد على قضايا الفكر الإسلامي :

1.2- خصائص فكر مصطفى صبري:

-**الموضوعية**: تميزت كتابات مصطفى صبري بالموضوعية التي تعني "مسلك الذهن الذي يرى الأشياء على ما هي عليه فلا يشوشها بنظرة ضيقة أو يتحيز خاص"، ففي ميدان الصراع الفكري لا مكان إلا للحجة والبرهان، ونجد مصطفى صبري قد

"التزم الموضوعية تجاه الأشخاص الذين يناقشهم أو ينقل عنهم في كتبه، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين"[9].

- **الأمانة العلمية**: التزم مصطفى صبري الأمانة العلمية في مواجهته لقضايا الفكر الإسلامي، وهي عرض الفكرة المبحوثة سواءً كان معارضاً لها أو موافقاً بأمانة علمية، وبشكل أمين وموثق، وذلك "بنقل أقوال من تصدى لمناقشتهم والردِّ عليهم، كما أنّه يعزو الحقَّ لأصحابه، ويبين ما لهم من الحق الذي يُشكرون عليه، ويذكر الحقائق والوقائع كما هي، ولا يغفلها أثناء تقريره للمسائل، حتى وإن كانت في صالح مناظريه وخصومه"[10].

- **الشمولية والعمق**: تميز مصطفى صبري بسعة إطلاعه وتبحره في مختلف العلوم والمعارف، وهذا الأمر ميزه بنظرة شاملة ممحصة لجميع جوانب القضايا التي أثيرت في العالم الإسلامي نتيجة للغزو الفكري.

- **النقد والتحليل:** الجانب النقدي مهم في عالم الفكر والفلسفة، والناظر لأعمال مصطفى صبري يلاحظ أن لها سمة نقدية واضحة المعالم، فهو دائمًا ما يلزم نفسه بنقل وعرض أراء وأقوال أحد المخالفين ثم يردُّ عليها، ثم ينقل أقوالاً أخرى لنفس الشخص ويرد عليها، وهكذا حتى يظهر شدّة بطلان أقوال خصمه. ولم يقتصر نقده على الجانب السلبي في التفنيد والمعارضة والهدم بل كان أقرب ما يكون إلى التحليل والمتمثل في "تحليل الأقوال والأفكار التي يدرسها، وذلك بإرجاعها إلى أصولها التي نشأت عنها، وبيان تطوراتها، وما يمكن أن تنتهي إليه أو تسفر عنه، وكذلك تحليل عقليات أصحابها تحليلاً دقيقًا، مبينًا المنطلقات التي تنطلق منها والغايات الأهداف التي تسعى إليها"[11].(أعلام المسلمين: مصطفى صبري المفكر الاسلامي والعَالِمُ العالمي وشيخ الاسلام والدولة العثمانية سابقا، مفرح بن سليمان القوسي، دار القلم، دمشق، ط1، 2006م، ص 385).

- **اعتماد المبادئ الإسلامية:** إن المرجعية الأولى التي اعتمدها مصطفى صبري لغةً وأسلوباً ومنهجاً في تأسيس الإيمان، هي كتاب الله الخالد القرآن الكريم، وسنة نبيه الأمين، فهذه المرجعية هي الأصل والأساس الذي يستمد منها في كل بناء فكري ومعرفي، ورغم أن مصطفى صبري عاش في أوج مراحل الانبهار بالحضارة الغربية، إلا أنه لم يتزحزح عنها قيد شعرة، وراح يدافع عن التعاليم الإسلام وسيادة القرآن، يقول في ذلك:" فأحببت أن أقابل تلك الأصوات بصوت يدافع عن سيادة القرآن العامة وصيانة الأمة التركية أن يقطع لها آخر حبل يربطها بوحدة الإسلام وأرى خطأ المشتركين في عمل القطع من العرب فلعلهم ينتهون ويرحمون الترك فينصرونهم بحجز ظالميهم عن الظلم لا بأن يكونوا عونا للظالمين"[12].

2.2- منهج مصطفى صبري في الرد على قضايا الفكر الإسلامي:

اهتم مصطفى صبري بمسألة الدفاع عن الدين والمنافحة عنه، وكان منهجه واضحاً في ذلك، حيث آمن بأن هذه الحركة الإحيائية لا بد أن تبدأ من العودة إلى المفاهيم الإسلامية الصحيحة، وذلك بالرجوع إلى مصادرها الأصلية، وراح يؤكد في وضوح لا لبس فيه على ضرورة إعادة تأسيس الكلام على منهج عقلي مستفاد من النقل، ليكون أكثر تماسكاً في بنيته وأساسه، وفيما يقوم عليه من قواعد، وليُؤَمِنَ لنفسه تناسقاً منهجياً عقلياً راسخاً يجرده من أشكال البدع التي يمكن أن تلتصق به، والانحرافات التي يمكن أن تشوه

مضامينه، أو أن تخل بدلالاته وتعطل وظيفته، وتدفعه إلى الانشغال بقضايا عريضة لا علاقة لها البتة بعلم الكلام ولا بما ينتظره من دور، ولا بالعقيدة الدينية في مضمونها ومؤداها، أو في فاعليتها وآثارها.

ومع أن المنهج المتبع سابقا في علم الكلام هو المنهج الجدلي القائم على القضايا المسلمة، والمشهور لدى الطرفين، فمصطفى صبري في كتابه موقف العقل يقف موقف عداء مع المناهج الحديثة، حيث يقول:" فنحن نخرق هذه العقلية المظلمة في هذا الكتاب إن شاء الله، وندافع عن حقوق العلم القديم، المستند إلى العقل و المنطق، أمام العلم الحديث، المباهي باستناده إلى الحس و التجربة"[13]، حيث دافع عن حقوق العلم القديم، وبين أهم عماد في الفكر الإسلامي وهو الدليل العقلي، وقارن بين المنهج الإسلامي في المعرفة، والمناهج التي اتبعها المثقفون والفلاسفة الغربيون، فبرهن بأن الدليل العقلي مقدم على الدليل التجريبي، الذي يدعي الصحة ويقول أن الشك في كل شيء هو أساس المنهج العلمي الصحيح. ومفاده بأن ينكرَ الشخص كل ما يعرف، وأن لا يثبت شيئاً إلا إذا قامَ عليه دليلٌ من التجربة، والملاحظة، والاستنباط، وهذا شامل لكل فروع الحياة ويشمل بذلك الإيمان والمعتقد الفكري والديني، فثبوت الدين في نظرهم ونظر العلم يتوقف على كون أصوله الإعتقادية ككل بحث علمي مؤسس على تجارب حسية تشبع الفضول الإنساني في حب الاكتشاف والاطلاع، والشيء المميز في التجربة الحسية أنه يمكن تكرارها لكل من أراد، ويجب أن تكون التجربة لصحة الدين و ثبوته كتجربة كون النار محرقة، أو كتجربة كون التيار الكهربائي قاتلا إذا مس الإنسان أو الحيوان؛ ويجب أن يتبين خطأ المنكر للدين عند التجربة الحالية، كما يتبين خطأ المنكر لاحتراق النار، أو خطر التيار الكهربائي[14]، وحسب هذا المنهج الجديد نجد أنه لا يجب أن نؤمن بوجود الله من دون أن نرى شخصه، أو نسمع صوته، يكلمنا كما يكلم الواحد منا الآخر في التليفون أو الراديو على الأقل؛ وأن لا نؤمن بالأنبياء الماضين، إلا بشرط أن يأتينا ما أتاهم من الوحي، أو الملك المبلغ عن الله، أو الكتاب المنزل من السماء؛ وإلا بشرط أن يظهر على أيدينا ما ظهر على أيديهم من المعجزات المعبرة عندهم بالخوارق والأساطير، ومادام هذا الشرط لم يتحقق إلى الآن؛ فلا يمكن إثبات صحته.

في المقابل نقول أن عدم كون الدين مؤيداً بالتجربة ليس لعيب في الدين، بل في التجربة نفسها؛ لكونها ميزاناً قاصراً على الماديات، والدين أرفع شأناً من أن يدخل في متناول هذا الميزان، وإذا لزمت التجربة للدين، فلا يجربه إلى العقل، الذي هو أيضاً منحة للإنسان من العالم العلوي كالدين؛ و الذي يسمونه العلم، ويقوم على التجربة، فإنما يكون نفعه في الماديات، لا في المعنويات؛ و كل مخترعات الغرب أمور مادية، يستخدمونها في تحقيق مطالعهم وشهواتهم.

وخلاصة ما سبق يمكننا القول بأن مصطفى صبري قد بين قيمة الدليل العقلي بالمقارنة مع الأدلة التي استند إليها المثقفون الغربيون أو المتغربون، فبرهن ببراهين ساطعة أن الدليل العقلي أيقن من الدليل التجريبي.

3-هدف مصطفى صبري وغايته الدفاعية:

نهض مصطفى صبري جنباً إلى جنب مع مفكرين كبار في العالم الإسلامي بسلسلة من الإصلاحات، وعمليات التطوير والتجديد على صعيد أوسع وأشمل في قضايا التبليغ

والدعوة والإرشاد الإسلامي، وبهدف محاربة الانحرافات الفكرية، وتجديد كل ما طرأ عليه الخراب من نواحي الإيمان الديني وذلك في الشرق الإسلامي، ولخطورة الأمر أوجب على نفسه إثبات صدق الدين والدفاع عنه، كما جاء ذكر لهذا الأمر في مقدمة كتابه موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، حيث قال أنه:" كان في ريعان شبابه يكافح ويقاوم سياسة الظلم والهدم، والفسوق والمروق، في مجلس النواب وفي الصحف والمجلات، ويدافع عن دين الأمة وأخلاقها وآدابها وسائر مشخصاتها، متحديًا في ذلك كل ألوان الشدائد والمصائب ومغادرًا المال والوطن حتى وصل به الأمر إلى الاعتقال ومع كل هذه العراقيل إلا أنه لم يحس يومًا بالندامة على ما ضحى به في هذا السبيل من حظوظ الدنيا ومرافقها" [15]. فاشتغل بتثبيت العقيدة وقد صرف كل جهده في سبيل ذلك، مكافحاً بذلك اللادينيين، ومحارباً بطريقة علمية متجلية في القضاء على كل شك يرمي إلى الإلحاد.

فتلخص هدف مصطفى صبري في اشتماله على الوظائف الرئيسة لعلم الكلام وهي:

1.3-تصحيح العقائد الدينية:

لقد سعى مصطفى صبري إلى شرح وتبيين المفاهيم الإعتقادية بالصورة المناسبة، القادرة على احتواء واستيعاب المضمون إلى أبعد الحدود، وتبيين ما هو من أصول الدين وتوضيحه، وبالتالي تحديد المصطلحات وتقليص الأخطاء والإشتباهات التي يمكن أن يسببها سوء أو قصور الفهم، فكان مراعيًا في ذلك إفهام المتلقي المسلم ما به يتمكن من التمسك بعقيدته، حيث قال:" مازلت منذ بضع سنين مشتغلا بتأليف كتاب درست فيه جلّ ما يحتاج المسلم المتعلم إلى معرفته، لوقاية عقيدته الدينية من الزيغ العصري الذي ازدادا مع ازدياد أيام حياتي بمصر"، وحرص في ذلك على عرض آراء المخالف وضلالات المثقفين بثقافة غربية بإطناب ثمّ يرد عليهم، فتطرق مناقشا ومحاورا لأهم محاور العقيدة التي فجرت في عصره وأثيرت حولها الضجة في الأوساط العلمية والفكرية، وعكف في تعيين ودراسة محاولات التقليد والتغريب، وكشف زيف دعوى المجددين في إنكار المغيبات والتفسيرات المادية لأحداث التاريخ الإسلامي؛ ولاسيما التاريخ العثماني، وجمع ما يحتاج المسلم إلى معرفته من المسائل العلمية والفلسفية لتسلم عقيدته وتصمد أمام تيارات الزيغ العصري.

2.3-إثبات الاعتقادات الدينية:

أثبت مصطفى صبري المفاهيم الإعتقادية، وأقام الأدلة والبراهين عليها، وذلك من خلال توظيف مختلف أنواع الإثباتات المنطقية والمعتبرة قياسًا واستقراءًا، فقد طرح مثلاً فكرة النبوة مكتسبة وناقشها بما يدحضها، وعرض أدلة المنكرين وتفنيدها ونقضها بإظهار عقلانيتها متحيزًا في ذلك إلى الأخذ من الكتاب والسنة لإثباتها مما يجعلها محط تسليم وتصديق المخاطبين.

3.3- دحض الآراء المعارضة:

انبرى مصطفى صبري إلى بيان آراء المخالفين ودحضها برد ودفع الإشكالات والشبهات الموجهة إلى المعتقدات الدينية والمذهبية، وعلى رأسها الآراء الإلحادية، المعارضة للدين الإسلامي والمتفشية في عصره في الشرق الإسلامي، ومواجهة الأديان والفلسفات المختلفة مثل ردّه لشبه النافين لوجود الله من الملاحدة، وفي ذلك دلالة قاطعة

على إحاطته بالفكر الغربي والفلسفة الغربية عامة، كما سعى لكشف المؤامرات التي تعرضّ لها الإسلام من زاويتين: التحدي بالسلاح من خلال هجمات الغربيين، والتحدي الثاني الإلحاد والفجور في الأواسط الإسلامية، كما دافع عن مشخصات الإسلام وآدابه، وعن الخلافة الإسلامية والحكم الإسلامي، وواجه بكل قوة وحجة المستخفين بالدليل العقلي، والمستندين إلى الدليل الحسي التجريبي. ويرسم طريق الوصول إلى هذه الغاية بالتمسك بديننا وأخذ القوة من قوته الدنيوية إلى حد أن نغلب الغالبين، فالإسلام أقوى الأديان وأوفقها للعقل الذي يغلب بفضله غلاب الدنيا.

4- دور مصطفى صبري في معالجة قضية المرأة:

تحظى قضية المرأة بأهمية قصوى في الصعيد الفكري والاجتماعي، ويدعّم السعي إلى طرح أسئلة أساسية ومصيرية حولها، ونجد مصطفى صبري وآخرون قد تناولوا هذه القضية، وردوا على من زعم أنّ الإسلام فاوت في حق من حقوق الإنسانية بين الرجل والمرأة، وأنه جعل من صنف الذكورة والأنوثة سبباً لهضم حقوق أحد النوعين، وسنتطرق في هذه الجزئية إلى مسألة السفور والحجاب، ومسألة تعدد الزوجات والمساواة، التي تناولها مصطفى صبري في كتابه "قولي في المرأة".

1.4- موقف مصطفى صبري من قضية السفور والحجاب:

من جملة الأمور التي طرحت في ساحة الفكر الإسلامي قضية الحجاب باعتبارها مبدءاً إسلامياً، وحكماً فقهياً، وكان الدافع من إثارتها حل جميع المشاكل الأسرية، وتحقيق قيمة إنسانية للمرأة في المجتمع، والظاهر أن الأحاديث الرائجة من مقلدي النظم الغربية، تقول أن الإسلام احتقر المرأة وأهانها والتزم جانب الرجل فقط، وأن وجود شيء في القرآن لا يقتضي صحته، فعلى الرغم من صراحة آيات الحجاب الموجودة في كتاب الله، إلا أنهم شنو حملة رفض عليه، "فاحتجاب المرأة، كما يكون تقييداً للفوضى في المناسبات الجنسية الطبيعية، ويضاد الطبيعة من هذه الحيثية، فهو يتناسب مع الغيرة التي جبل عليها الإنسان، ويوافق الطبيعة من ناحيته الأخرى، إلا أن الغيرة غريزة تستمد قوتها من الروح، والتحرر عن القيود في المناسبة الجنسية غريزة تستمد قوتها من الشهوة الجسمانية، فهذه تغري بالسفور، وتلك تبعث على الاحتجاب، وبين هاتين الغريزتين تجافٍ، وتحاربٌ، يجريان في داخل الإنسان[16].

وقيل أيضاً في قضية الحجاب أنها تجميد للطاقة التي أودعتها الخلقة في ذات المرأة، وأنّه يسلبها حريتها وحقها الطبيعي كإنسان، ولذلك فهو يعتبر إهانة إلى الكرامة الإنسانية للمرأة[17]، ويرد على هذا الإدعاء بأن "الحجاب كان موجودًا في العالم قبل الإسلام، وأنه ليس من ابتداعه، وهو واجب ملقى على عاتق المرأة يطلب منها بموجبه أن تكون متسترة بصورة خاصة عند تعاملها مع الرجل، فالرجل ليس هو الذي فرض عليها هذا الواجب، ولا هو مما يتعارض وكرامة المرأة، ولا هو اعتداء على حقوقها الطبيعية التي أقرها الله لها"[18]، إنما الأمر على العكس من ذلك إذ أن حجاب المرأة ضمن الحدود التي حددها الإسلام، يرفع مقامها ويزيد في كرامتها ويوجب احترامها، لأنه يردع عنها الإجلاف والذين لا خلاق لهم"[19].

ويؤكد مصطفى صبري على أن رأس المحنة فيها هي انعدام الغيرة التي تفشت بين ظهراني المسلمين، ولعل الأمر عقاباً إلهياً لأن "غيرت المسلم على نسائه زالت مع غيرته على إسلامه، وربما كان زوال الأولى جزاءًا من الله تعالى في الدنيا على زوال الثانية"[20]، فابتعاد الإنسان عن ربه جعله يقع في معصيته سبحانه، فلا رادع للفحشاء والمنكر ولا مقوم للسلوك إلا بإذن الله، ومن العبث الواضح بالعقول اقتراح قُدِّم إلى مجلس النواب المصري لتعديل قانون الأحوال الشخصية لتضارع نظيرتها الغربية، التي اعتبرت الغيرة من النقائص الخلقية، فالمدنية الغربية تواضعت مع المتمسكين بها، على أن "تباع الرذيلة في سوقها باسم الفضيلة؛ على الرغم من شعور الإنسان بفطرته أنها فضيلة"[21]، بيد أن سبب نفاق هذا البيع أنه يتضمن لذة مادية للمتبايعين، فيُهتك في سبيلها الحياء، ويُسمى الاعتياد والإدمان، حتى يحتاج الإسلام من هذه الناحية إلى دفاع عنه، يمتد على طول اعتداءات العابثين، في حين أن الحضارة الغربية، القاضية على الفضيلة المبنية على أساس الرذيلة سالمةٌ عن التنديد و الاتهام، وهذه المعاكسة بالحقائق، تروج بفضل تعصب الغربيين، لما ينسب إليهم من التقاليد، وضلال أبناء المسلمين صراطهم المستقيم[22].

ويمكننا أن نقول أنه "إذا أردنا تقديم صورة إنسانية راقية عن حضور المرأة الاجتماعي، والاستفادة من فنّها، ومهارتها، وعلمها، ومعرفتها -لا من استغلال جسدها- فإن الحجاب هو أفضل وسيلة لتحقيق هذه الغاية"[23]، فهناك قيم لا تبلي بتقادم النظم الاجتماعية والثقافية والعلاقات الانتاجية، بل تبقى حية ما بقيت الانسانية حية.

2.4- موقف مصطفى صبري من مبدأ تعدد الزوجات:

دافع مصطفى صبري عن شبكة العلاقات الأسرية والمجتمعية، وكان لمسألة المرأة حظ من كتاباته، فقد عالج مسألة تعدد الزوجات التي أثرت في المجتمعات المحافظة، والمجتمعات التاريخية والدينية على حد سواء، تحت شعار تحرير المرأة، ولخطورة الأمر أوجب على نفسه مهمة الدفاع عن القضية ورفع اللبس عنها، وتبيين تضليل المغتربين، هذا الضلال الذي جعل البعض ينافقون في طلب تعديل قانون الأحوال الشخصية والمرأة الشرقية عندهم "مقهورة منكودة الحظ مقارنة بالمرأة الغربية التي كان أهلها يعبدونها ويجلونها، لكن الحقيقة أن الغربيين ومقلِّدتهم منا يعبدون هوى أنفسهم في عبادة المرأة، وما إجلال الرجل العصري المرأة وتقديمه إياها على نفسه إلا نوعًا من الضحك على ذقنها لمخادعتها وجعلها أداة اللهو واللعب، ودعوى تحررها ما هي إلا إنزالها من عرشها المنيع إلى أسواق الابتذال، وتحملها لأعباء الحياة القاسية"[24]. فالإسلام أقر "حق تعدد الزوجات الذي يكون للرجال من دون أن يكون للنساء حق تعدد الأزواج، وهذا وفقا للفطرة الأولية وما فيها من الفروق الأساسية بين الذكر والانثى"[25]، ونجد القرآن الكريم يبيح صراحةً-بشرط العدالة- هذا الحق، إذ ورد في قوله تعالى:" **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا** "(سورة النساء: الآية 03)، ومن هنا فقد حصر القرآن الكريم التعدد بأربعة فما دون، وشرطه العدل وإمكانية النفقة، " **أَلاَّ تَعْدِلُوا**"، ثم إن قانون العدل في الاسلام يمنع الزواج الجديد على حساب الزواج السابق، ويحل بذلك مشكلة تعارض المصالح بكل بساطة فيقول تعالى في كتابه

العزيز:" **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا** "(سورة النساء: الآية 03)[26].

3.4- موقف مصطفى صبري من المساواة بين الرجل والمرأة:

تتعالى الصيحات الخادعة من هنا وهناك يوما بعد يوم وهي تدعو إلى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل، ودعوة المرأة المسلمة لتأخذ حظها من الحياة كما أخذت به المرأة الغربية، وتقليدها ومحاكاتها في كل شيء، بيد أن الإسلام لا يرى فرقا في الإنسان بين الرجل والمرأة؛ إذ يضع القرآن الكريم إلى جانب كل رجل عظيم امرأة عظيمة ومقدسة، فيذكر بكل تقدير زوجات آدم وإبراهيم وأم عيسى وموسى–عليهم السلام- وما ذلك إلا لعناية الإسلام واعتراف منه بدورها العظيم في دفع الحياة البشرية نحو المحبة والإيمان والعفة"[27]. ونجد الخلاف الحاصل في قضية المساواة بين الرجل والمرأة، كونها أقرب للتوازن والتكافؤ، وأبعد ما تكون عن التماثل، مع أن "المساواة التماثلية التي ينادي بها هؤلاء لا تتمتع بأي تأييد ديني، لا بل هي مناقضة مع روح الدين وجوهر العقيدة، ذلك أن دأب الدين هو إقامة القسط العدل"[28].

ومع هذا نجد مواقف متباينة لبعض المفكرين من مبدإ المساواة بين الرجل والمرأة، إذ ما زال فريق منهم يقيد هذا المبدإ، فيما يذهب آخرون إلى تأكيده بكل قوة، وبين هذا وذاك تتوزع المواقف، غير أن الجميع متفقون في المساواة في عدد من الأمور، لاسيما القيم التي يبشر بها الدين، والتكاليف التي يتوجه بها إلى الناس في المجال الأخلاقي والعبادي، إذ يخاطب الدين أفراد الجنس البشري، أو المؤمنين، أو المسلمين، دونما تميز بين الرجل والمرأة، مؤكداً تحدرهما من نفس واحدة:" وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة"(سورة الأنعام: الآية 98)، كما أن الجميع متفقون على المساواة في الملكية، والنشاط الاقتصادي، والأهلية المدنية، والمساواة أمام القانون في مجال النفس والمال، وفي مجال المسؤولية والجزاء"[29].

ويرى مصطفى صبري أن تعلم البنات يكون "مقصوراً على ما يهمهن في تدبير منازلهن أو تربية أولادهن وتهذيب أخلاقهن، وعلى قواعد حفظ الصحة والانتظام والاقتصاد، وخلاصته إعدادهن لأن يكون خير أمهات وخير زوجات، لا ليكن عدلا في جميع الأعمال، لأن ذلك لا يمكن ولا ينفع"[30].

ويمكننا القول في الأخير أن المجتمع إذا تمسك بالإسلام فلن يرى إلا الخير والفضيلة والتقدم والازدهار للرجل والمرأة، وحينذاك لا يرى السفور ولا الخلاعة ولا التبرج ولا الاختلاط المحرم، وكذلك تكون المرأة في حماية زوجها في ساحة الأعمال الثقيلة المرهقة، وتحفظ لها كرامتها وشرفها.

الخاتمة:

توصل البحث من خلال هذا العرض البسيط على جهود مصطفى صبري في الدفاع ومواجهة التحديات المعاصرة ضد قضية المرأة إلى أهم النتائج نذكرها كالآتي:

- لأسرة مصطفى صبري أثر واضح في تنشئته النشأة الدينية، وفي تحديد اتجاهه العلمي، وإغناء عقليته وتكوين شخصيته الفذة والقوية، كما أن دراسته وتحصيله العلمي مصدر مهم من مصادر تكوينه الفكري.

-كان مصطفى صبري واسع الاطلاع بالمستجدات المعاصرة لزمانه، وعلى دراية بعلوم عصره.
-سخر مصطفى صبري فكره وقلمه للدفاع عن الدين الإسلامي، واسهم بجهده في خدمة الإسلام والمسلمين.
-تميز مصطفى صبري بحنكة وفطنة، أهلته لتشخيص وتحليل دقيق للأزمات التي يعاني منها العالم عامة والاسلامي بوجه خاص، ثم إيجاد الحلول الناجعه لها.
-ناقش قضية المرأة وعالج مسائل السفور والحجاب، وكذا تعدد الزوجات والمساواة، بشكل لاذع وقوة حجة وصبر.
-تميز فكر مصطفى صبري بخصائص متنوعة من موضوعية، وأمانة علمية، ونقد لاذع للأفكار مع التحليل وسعة إطلاع، أدخلته في زمرة المجددين.
-قيضه الله تعالى لرفع راية التجديد وإحياء ما طمس من تعاليم الدين الإسلامي، في وقت قل فيه الداعين لذلك، وكثرت القوى والمنظمات المعادية للإسلام.

التوصيات:

يقترح الباحث بعض التوصيات من بينها:
-دراسة تقويمية لجهود مصطفى صبري التجديدية.
-زيادة التوعية بأهمية الأسرة ودور المرأة في المجتمع.
-العمل على تحصين الفئة الشبابية بالفكر الإسلامي النير، ونشر الوعي الديني البعيد عن الغلو والتطرف.
-ضرورة تكثيف البرامج والأنشطة والمحاضرات والندوات البناءة عن طريق جميع مؤسسات المجتمع التي تهتم بترسيخ القيم والآداب الإسلامية الصحيحة للإسلام.
-تأسيس مشروع انفتاح معرفي إسلامي قائم على الحوار مع المعرفيات المعاصرة، ومنفتح على النتاج الإنساني، مع لفت الأنظار إلى موجات الاجتياح الثقافي الذي يهدد الهوية الإسلامية، ويعطل فعل الحوار والتبادل المعرفي.

الهوامش:

1- مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1981م، ج4، ص388.
2- مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، ج1، ص71.
3 - مصطفى صبري، النكير على منكري النعمة من الخلافة والأمة، المطبعة العباسية، بيروت، 1342ه، ص98.
4 - مفرح بن سليمان القوسي، مصطفى صبري المفكر الإسلامي والعالم العالمي وشيخ الإسلام في الدولة العثمانية سابقاً، دار القلم، دمشق، ط1، 2006م، ص13.
5 - خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، 1980م، م7، ص236.
6 - ينظر؛ مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، ج4، ص387.
7 - ينظر؛ مذكرة عمار جيدل ص 8-10.
8 - ينظر؛ مفرح بن سليمان القوسي، مصطفى صبري المفكر الإسلامي والعالم العالمي، ص71-93.
9- مفرح بن سليمان القوسي، مصطفى صبري المفكر الإسلامي والعالم العالمي، ص385.
10 - مفرح بن سليمان القوسي، مصطفى صبري المفكر الاسلامي والعَالِمُ العالمي، ص 385.
11- مفرح بن سليمان القوسي، مصطفى صبري المفكر الاسلامي والعَالِمُ العالمي، ص 385.
12 - مصطفى صبري، مسألة ترجمة القرآن، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، دط، 1351ه-1933م، ص04.
13 - مصطفى صبري: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، ص 78.

14- ينظر؛ مصطفى صبري: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، ج1، ص62 .
15 - ينظر؛ مصطفى صبري، موقف العلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، ج1، ص01.
16 - ينظر؛ مصطفى صبري، قولي في المرأة، دار ابن حزم، 1354ه، ص26.
17- مرتضى مطهري مسألة الحجاب، تح: عبد الكريم الزهيري، آينده درخشان، ط2، 2009م، ص86.
18- مرتضى مطهري مسألة الحجاب، ص86.
19 - مرتضى مطهري مسألة الحجاب، ص87.
20 - مصطفى صبري، قولي في المرأة، ص09.
21 - مصطفى صبري، قولي في المرأة، ص31-32.
22 - مصطفى صبري، قولي في المرأة، ص32.
23- فريبا علاسوند وآخرون، المرأة وقضاياها دراسة مقارنة بين النزعة النسوية والرؤية الإسلامية، بيروت، ط2، 2013م، ص252.
24- بتصرف؛ مصطفى صبري، قولي في المرأة، ص09.
25- محمد تقي المدرسي، المرأة في المجتمع الإسلامي، دار الصادق، الكويت، ص18.
26- محمد تقي المدرسي، المرأة في المجتمع الإسلامي، ص20.
27 - ينظر؛ محمد الحسيني الشيرازي: المرأة في المجتمع المعاصر، ص50.
28 - محمد علي وآخرون، المرأة وقضاياها، ص113.
29- محمد طي وآخرون، المرأة وقضاياها، ص190-191.
30- مصطفى صبري، قولي في المرأة، ص65.